

The Interpretation of Historical Referencing in the Novel 'Morisco' by Hassan Ouriad

تأويل المرجعية التاريخية في رواية "الموريسكي" لحسن أورياد

Nidal Al-Shamali^{1*}.

¹Al-Balqa' Applied University, Princess Alia University College, Jordan.

ARTICLE INFO

Article history:

Received 30 Jan 2023

Accepted 09 Mar 2023

Published 01 Apr 2025

*Corresponding author:

Al-Balqa' Applied University, Princess Alia University College, Jordan.

Email: nidalshamali@bau.edu.jo.

Abstract

The historical dimension in the novel operates within a tense reference framework, characterized by continuity and expansion, dictated by the law of succession between two texts separated by the aesthetic distance required by the art of the novel. Direct engagement with this reference framework can lead to superficial judgments regarding the authenticity and artistry of the work. Narrative analysis alone does not suffice in revealing its secrets or resolving its complexities, due to the intertwining of historical references with ideological and narrative aspects. Therefore, it relies on the concepts of sequential semiotics, as established by Vladimir Krizinsky, represented through a set of mechanisms that examine the relationship between the historical and the imaginative, such as mediation, embodiment, blending, illusion, and density. This study aims to apply these concepts to Hassan Ouriad's *The Morisco* (2011), a novel that adopts the tragedy of the Moriscos as its historical reference. The Moriscos were Muslims of Andalusia who remained after its fall in 1492, suffering under the Inquisition before being forcibly exiled to various lands. Hassan Ouriad's novel is based on two main sources: the travelogue of Shihab al-Din Ahmed ibn Qasim al-Hajari, known as Afuqay (1569-1642) in *Al-Shihab Ila Liqa' al-Ahbab* (1611-1613), and the historical writings of the contemporary Morisco historian Muhammad Qashtillo. The study is divided into three sections: the concept of reference, the mechanisms of historical referencing, and the laws of historical referencing.

Keywords: Historical Reference, Novel, Sequential Semiotics, Narrator, *The Morisco* Novel.

الملخص

تتخذ التاريخية في الرواية بعداً مرجعياً متوتراً قائماً على الامتداد والاتساع، فرضه قانون التعاقب بين نصين تفصل بينهما مسافة جمالية تستدعيها فنية الرواية، والتعامل المباشر مع هذه المرجعية يُورث سطحية في الحكم على أصالة العمل وفنيته، ولا تُعين المقاربة السردية وحدها على كشف أسرارهِ وحلِّ مغاليقه، بسبب تواشج المرجعية التاريخية بالإيديولوجي والسردية؛ لذا تستعين بمفاهيم السيميائية التعاقبية كما استقرت لدى "فلاديمير كريزينسكي" متمثلة بمجموعة من الآليات الفاحصة لعلاقة التاريخي بالتخييلي؛ كالوساطة والتذويت والمزج والوهم والكثافة.

تسعى الدراسة إلى تطبيق هذه المفاهيم على رواية "الموريסקي" لحسن أوريد ٢٠١١، وهي رواية اتخذت من مأساة الموريسكيين مرجعية تاريخية لها، والموريسكيون هم مسلمو الأندلس الذين بقوا فيها بعد سقوطها عام ١٤٩٢م فنكّلت بهم محاكم التفتيش، ثم هُجّروا قسراً إلى بلاد عديدة. وقد اعتمد حسن أوريد في كتابة روايته على مصدرين أساسيين؛ رحلة شهاب الدين أحمد بن قاسم الحجري الملقب بأفوقاي (١٥٦٩-١٦٤٢) "الشهاب إلى لقاء الأحاب ١٦١١-١٦١٣"، وكتب التاريخ التي كتبها المؤرخ الموريסקي المعاصر محمد قشتيليو. وتتوزع الدراسة على ثلاثة محاور هي: مفهوم المرجعية، آليات المرجعية التاريخية، قوانين المرجعية التاريخية.

الكلمات المفتاحية: المرجعية التاريخية، الرواية التاريخية، السيميائية التعاقبية، السارد السيميائي، رواية الموريסקي.

تمهيد

تعدّ المرجعية أحد المحاور الأساسية في تحديد معالم الخطاب الروائي لاتصاله بالبعد المعرفي للنصوص وكتابتها. أكان اتصالاً مبنياً على التناص أم المحاور والتأويل، يرتفع لها المستوى الحكائي للرواية، وينشغل بها انشغالاً قائماً على مبدأ إعادة قراءة المرجع وتقديمه ضمن رهان جمالي يكفل للرواية اشتراطاتها الفنية، فالرواية خانة التقاء للعديد من العلامات. والمرجعيات التي تستند إليها الرواية متعددة حسب الفضاء المعرفي الذي تنساق إليه الرواية، والتاريخ هو أحد هذه المرجعيات التي تشكل مادة خصبة للمستوى الحكائي في الرواية، فلا رواية دون مرجعية تاريخية، تتسع أو تضيق إحالتها بما يتوافق ورؤية مبدع النصّ الروائي. والنصّ الروائي "وسيط بين الإنسان والعالم، والوساطة بين الإنسان والعالم هي ما يُصطلح عليه بالمرجعية". (إبراهيم، ٢٠٠٣). إنّ كل نصّ رواي يعتمد على جملة من المرجعيات كالتاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية والإيديولوجية، وقد تعمقت المرجعية التاريخية أكثر من أي مرجعية أخرى كون الرواية بُنيت على سيرة مأساة موريסקي هو شهاب الدين أحمد الحجري الملقب بأفوقاي الذي استنطق مأساة جميع الموريسكيين عند التهجير وما بعد التهجير.

وتتلخص إشكالية الدراسة في تتبع مظاهر المرجعية التاريخية في رواية الموريסקي بوصفها رواية تاريخية تستند إلى تاريخ مثبت في مدونتين أساسيتين؛ مختصر رحلة شهاب الدين أحمد الحجري أفوقاي "الشهاب إلى لقاء الأحاب ١٦١١-١٦١٣"، والثاني مؤلفات محمد قشتيليو الذي رصد تاريخ الموريسكيين ومأساتهم. والتساؤل قائم في البحث عن آليات الموازنة بين التاريخي والتخييلي في رواية "الموريסקي" من خلال آليات السيميائية التعاقبية وقوانينها.

وتهدف هذه الدراسة إلى التتبع المرجعي لهذه الرواية في إطار التاريخ وأدب الرحلة السابقين عليها، وإبراز العمل بوصفه بنية فنية قبل أن يكون مرجعية تاريخية لمأساة الموريسكيين، وما فرضته فنيّتها من تلبية لشروط الجنس الروائي دون الإخلال بسياقها التاريخي، وتلبية لقراءة التاريخ دون نقله كما هو.

أما أبرز الدراسات السابقة فيمكن الوقوف على دراستين مهمتين: قدمت الأولى دراسة لمختصر رحلة أفوقاي إلى أوروبا لنضال الشمالي عنوانها: إيديولوجية الإقصاء وإثبات الهوية: في مختصر رحلة أفوقاي الأندلسي "الشهاب إلى لقاء الأحاب ١٦١١-١٦١٣م" صدرت عام ٢٠١٥، وقد وقفت الدراسة عند موضوع الهوية وإقصاء الآخر وإثبات بطلانه وقصوره، في ظل رغبة ملموسة في تحقيق اندماج حضاري مع الآخر. والثانية دراسة تنظيرية تطبيقية عن مفهوم المرجعية في النصّ الروائي لعبد الرحمن التمار، عنوانها: مرجعيات بناء النصّ الروائي، صدرت عام ٢٠١٣، عالج بها من خلال منهجية السيميائيات التعاقبية أصنافاً متعددة من المرجعيات وعلى رأسها المرجعية التاريخية. معتمداً على الخطاطة السيميائية التعاقبية التي اقترحها فلاديمير كريزينسكي (W. Kryszinski) وما يستتبع ذلك من آليات مرجعية قائمة على الوساطة، والتذويت، والمزج، والوهم، والكثافة، وعلى قوانين: التكرار، والتشيع، والتحول.

تسعى الدراسة في مقاربتها هذه إلى تبني منهجية السيميائيات التعاقبية أو التطورية كما وردت لدى فلاديمير كريزينسكي في كتابه (Carrefours de signes: essais sur le roman modern, 1981, Mouton) وترجمته "ملاقي العلامات، مقالات في الرواية الحديثة"، ومن مقالته التي عرضها عبد الحميد عكار بعنوان "من أجل سيميائية تعاقبية للرواية"، وهي من المقاربات التي تُعين على تفحص العوامل الفاعلة في تشييد مرجعية النصّ الروائي. وأبرز هذه العوامل العلامات

اللغوية الدالة على وجود مرجعية ما للنص الروائي، إذ يحاول كريزينسكي أن يعيد إنتاج مدارات الرواية وتقويم وجاهتها في سياقها (كريزينسكي وعقار، ١٩٨٨).

يقدم كريزينسكي "نمذجة خاصة لتشييد الرواية، ومن بينها النمذجة المرجعية (Modelisation Referentielle)، وهي نسق من القيود الثيمية والشكلية (كريزينسكي، وعقار، ١٩٨). يتجلى فيها النصّ الروائي نظرياً ضمن إطار منمذج تقوم عناصره على التآلف والإنتاجية باعتبارها متتالية من الممارسات والنظريات. تتمثل هذه الخطاطة تقسيم النصّ الروائي في نمذجتين: مرجعية وإيديولوجية (التمارة، ٢٠١٣)، تتعهد الأولى النمذجة الجمالية والنمذجة النصية. وتتعهد الثانية النمذجة القيمية (فكر)، والنمذجة الغزبية (شعور). مما يعني، بدهياً، ضرورة تواشج النصّ الروائي مع نمذجات متعدّدة ومتسلسلة ومتفاعلة توازن بين الفكري والجمالي. يقيم كريزينسكي نوعاً من التماثل بين التطور البيولوجي والتطور الروائي، فالرواية أشبه بخلية مركبة من جزئيات تخضع لضغوط المعطيات الوراثية تنهض السيميائية التعاقبية باعتبارها قراءة للتوترات وللجدليات بين النصّ والموازي للنصّ (كريزينسكي، وعقار، ١٩٨٨) والقصد بالتطور البيولوجي إحياء سمة من سمات المنهج التاريخي لدى سانت بوف وهيبوليت تين في استفادتهما من تطور العلوم الطبيعية ونظرية دارون في مسألة التطور البيولوجي للكائنات، ونظرة كريزينسكي السابقة يعني بها تطور المعلومة التاريخية وانتقالها عبر قوانين متعددة إلى الهيئة الروائية الموجهة لها.

تسعى السيميائيات التعاقبية إلى تحيين قراءة النصوص الروائية وترهينها، معتمدة على مبدأ التعاقب الذي يتيح إمكانية النظر إلى النصوص نظرة متجدّدة متطورة، لكنها في الوقت نفسه لا تقضي تزامنيته القائمة على مبدأ التزمين الذي يصل بين الخصائص التعاقبية والتزامنية داخل النصوص الروائية، كما أنه يعمل على إقامة نوع من العلاقة الجدلية بين بنيتين نصيتين لكل منهما تشكّل خاص (سحنين، ٢٠١٨)، أما الذات الساردة حسب كريزينسكي فهي المكتشفة والباعثة للعلامات، والحاملة لخطاب موجه يمثل قناعاً لفظياً بوصفه صوتاً سردياً بديلاً للمؤلف وذو علاقة جوهرية بالمرجع (كريزينسكي، وعقار، ١٩٨٨)، لا تتبنى الدراسة منهج التأويل، بل منهجية السيميائية التعاقبية التي تتخذ من التأويل أداة من أدوات استكناه المرجعية التاريخية للرواية، والتأويل بوصفه أداة من أدوات هذا المنهج يعين على تمثيل وجهة نظر الروائي في التعامل مع مأساة الموريسكيين وإسقاطها على حاضرنّا.

مفهوم المرجعية

ترتبط المرجعية بفعل لساني قوامه الإحالة والمُحيل والمُحال إليه أو عليه. فالإحالة تتحقق عبر علامة لسانية موثقة تراهن على قدرة المتلقي إدراكها وفكّ مغاليقها لإحداث التواشج بين معرفة سابقة وموثقة ونصّ لاحق قادر على الاتصال. إن المرجع "هو السيرة التي تحيل عبرها علامة لسانية على شيء دالّ في الواقع، ويمثل مرجعاً لها. هذا المرجع إما شيء أو كائن أو مفهوم أو مجموعة من الأشياء أو المفاهيم" (التمارة، ٢٠١٣)، فالمرجع "يدل على ما تحيل إليه العلامة اللسانية، سواء في العالم الحقيقي أم في عالم الخيال" (خليل، ١٩٩٥)، وهي لدى سعيد علوش "حقيقة لسانية تستدعيها العلامة" (علوش، ١٩٨٥)، هذه الحقيقة قد تكون كما يقول محمد الخبو فيزيقية مادية خارج نطاق اللغة أو قائمة في اللغة (الخبو، ٢٠٠٦).

والمرجعية بتعريفها الشامل "هي العالم الذي يحيل عليه ملفوظ لغوي، علامة منفردة كانت أم تعبيراً مركباً، ويكون ذلك العالم إما واقعياً موجوداً وحاضراً، وإما متخيلاً لا يطابق أيّ واقع خارج التعبير اللغوي. وهذا يستلزم بالضرورة من يدرك ذلك العالم أو يتمثله، ثم ينتج الدلالات التي يمكن أن يعبر عنها العالم الخارجي المعروض في التعبير" (التمارة، ٢٠١٣، ص ٥٢).

والغاية من بحث المرجعية التاريخية في الرواية هي ضبط العلاقة بين العلامة اللغوية الموظفة في الخطاب الروائي وما تُحيل عليه هذه العلامة، كما قالها بول ريكور إنّ النصّ الأدبيّ يمثل "نموذج المباعدة في التواصل" (ريكور، ٢٠٠٤)، فإن ذلك يوحي بوجود مرجعيتين في النصّ الروائي التاريخي، إحداها سابقة، وهي تاريخية، والثانية لاحقة وهي تأويلية تفاعلية، وما بينهما من عقبات هيّأتها المباعدة المقصودة وهي شرط للتأويل.

مرجعية النصّ الروائي

ترتبط مرجعية النصّ الروائي بمسألتين متفاعلتين لا تنفصلان: دلالية وجمالية. فالعمل الروائي في جوهره "بنية لغوية وجمالية بالدرجة الأولى" (لحمداني، ١٩٨٦، ص ١٢)، أي يعود إلى نمذجتين حسب السيميائية التعاقبية: جمالية وتناصية.

فالرواية "ليست مجرد كتابة مقاطع متشابهة يجمعها موضوع واحد، إنها أعمق من ذلك، رؤيا شمولية، أو بحث منهجي، وليست تلفيقاً اعتباطياً لفصول غير متماسكة" (لحمداني، ١٩٨٦) وإن كانت هذه المرجعية تتقيد بوعي كاتبها أحياناً وتتمرد على وعيه وذكرته أحياناً أخرى، وتتمرد بها بفعل التداخل والنسيان لا يلغي وجودها.

مدونة الدراسة

والرواية مدار الحديث هي "الموريسكي" للمغربي حسن أوريد. الصادرة عام ٢٠١١، تتبّع فيها جانباً من مأساة الموريسكيين في حادثة تهجيرهم قسراً عن وطنهم الأندلس، متخذاً من سيرة حياة أحمد ابن قاسم الحجري الملقب بأفوقاي التي تجلت في رحلته "ناصر الدين على القوم الكافرين" مرجعية له في صياغة روايته.

مكونات المحكي وإثبات المرجعية التاريخية:

تستند هذه الرواية إلى مصدرين أساسيين في تشكيل مرجعيتها التاريخية، هما تاريخ مأساة الموريسكيين كما ظهر في كتب المؤرخ المغربي ذي الأصول الموريسكية محمد قشتيلو في كتابيه "محنة الموريسكوس في إسبانيا" ١٩٨٠، و"حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها" ٢٠٠١. والثاني حياة أحد أعلام الموريسكيين شهاب الدين أحمد قاسم الحجري أفوقاي صاحب رحلة "الشهاب إلى لقاء الأحباب" ١٦١١-١٦١٣م، التي وصلنا مختصر لها وحُقق عام ٢٠٠٤.

تاريخ الموريسكيين

تاريخ ضارب في عمق الألم أفرزته محاكم التفتيش في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين في إسبانيا والتي أنشئت بمرسوم بابوي في عهد فرناندو سنة ١٤٨٣م في قرطبة وجيان وطليطلة (الزباخ، ٢٠١٤، ص ٤) قبيل سقوط غرناطة في يناير ١٤٩٤م. والموريسكيون (Los Moriscos) هم العرب الأصغر أو العرب المتنصرون (قشتيلو، ١٩٩٩، ص ٣) وكلمة (موريسكو) مشتقة من (مورو) أي المغربي باللغة الإسبانية، وتعني الشعب المتنصر (قشتيلو، ١٩٩٩، ص ١١) تحرّفت لغتهم العربية بسبب الاضطهاد الذي مورس عليهم وأطلق عليها لغة الخميادو (Al-Jamiad) وهي الإسبانية مكتوبة بحروف عربية.

والموريسكيون هم تركة العرب المسلمين في الأندلس بعد هزائمهم التدريجية أمام الإسبان، ثم أقصائهم نهائياً منها، فتركوا خلفهم سكاناً عرباً مسلمين تمسكوا بديارهم ودينهم ثم أجبروا على الانخراط في المجتمع الإسباني عنوة، وقد دامت مأساتهم قرناً وربعاً عانوا التشريد والاضطهاد والقمع قبل أن يتم إخراجهم نهائياً من إسبانيا رغم أنهم عصب الزراعة والتجارة والصناعة. وكانوا قد أمروا "أن يتركوا لغتهم ولباسهم وأبواب منازلهم مفتوحة أيام المواسم والأعياد" (قشتيلو، ١٩٩٩، ص ٣٤-٣٨)، فضلاً عن الضرائب المبالغ فيها، ومصادرة الأملاك، والتنصير الإجباري، والقهر اللغوي، إذ فرض عليهم سنة ١٥٢٦م قانون يمنعه من التحدث إلا باللغة القشتالية خلال مهل لا تتجاوز ثلاث سنوات، وإلغاء العقود المكتوبة باللغة العربية، فانتشرت الأمية بينهم ونذر من يقرأ بالعربية، وأن يتخلصوا من لباس المسلمين خلال مدة أقصاها سنة واحدة ١٥٦٦م، وأن لا يسموا أولادهم بأسماء عربية.

وقد ألجأهم ذلك إلى التمرد والخروج إلى الجبال طلباً للحرية ف وقعت حرب البوشارات (Alpujarras) نسبة إلى جبال اختارها الموريسكيون معقلاً لثورتهم (قشتيلو، ١٩٩٩)، وثورة البوشارات هذه ١٥٦٨م هي أهم خروج مسلح قام به الموريسكيون بعد سقوط غرناطة، إلا أن هذه الثورة فشلت وارتدت عليهم القرارات أشد قسوة. ووُزَعوا على المقاطعات لإضعافهم وحُرموا أسباب الرفاهية وأقصوا عن الوظائف، ثم أمهل عدد كبير منهم أياماً معلومة لمغادرة إسبانيا وإلا تُستباح أرواحهم.

كان الخروج الكبير للموريسكيين من إسبانيا بين عامي ١٦٠٩-١٦١٤م في عهد فيليب الثالث وقدّروا بأربعين ألف شخص (قشتيلو، ٢٠٠١)، وقد عُيّن حكام لطردهم فصاروا يجمعون من صدر عليه الأمر بالطرد، ومن لا يمثل يُقتل أو يُباع رقيقاً، ومن سُمح له بالبقاء نظراً لإخلاصه لهم اشترط عليه ألا يكون ممن شاركوا بأنشطة معادية للحكومة أثناء حرب البوشارات، وأن يبرهن على حسن نصرانيته، وأن يشاركوا في قمع ثورات الموريسكيين (قشتيلو، ٢٠٠١).

مات بعضهم في المراكب عند ذهابه إلى المغرب، أو الجزائر، أو إيطاليا، أو تركيا، ومن وصل منهم لم يجد من يرحب به، بعدما طُردوا من إسبانيا، فكان المغاربة بسبب لباسهم ولغتهم المشوّهة وجهلهم بالإسلام يرون فيهم مسلمين تنصّروا،

وكان الإسبان قبلهم يرونهم مسلمين رغم تنصرهم، مع أنهم كانوا يسمونهم بالنصارى الجدد، وفي هجرتهم القسرية نُهبَت جُلّ أملاكهم من البحارة والقراصنة وقطاع الطرق، ولم يجدوا مستقراً مقبولاً لهم إلا في أماكن محدودة في المغرب العربي (قشتيليو، ١٩٩١، ٩٩). ومن الأسباب التي أغرت الإسبان لمثل هذه الأفعال هو ضعف إقليم المغرب العربي سياسياً وعسكرياً عن توفير الحماية للموريسكيين.

شهاب الدين أفوقاي

وهو الموريسكي أبو العباس أحمد بن قاسم بن أحمد ابن الشيخ الحجري الأندلسي، لُقّب بـ "أفوقاي" ولقبه المغاربة بـ "الشهاب"، أما الإسبان فلقبوه بـ "البيخيرانو" نسبة إلى قرية "بيخار"، وهو شخصية فذة واعية تمتلك إرثاً حضارياً إسلامياً واسعاً ومعرفة جيدة باللغة العربية. وُلد بقرية الحجر الأحمر سنة ١٥٦٩ أو ١٥٧٠ م (قشتيليو، ٢٠٠١)، قام أفوقاي بترجمة مخطوط قديم استعصى على القسيس فك طلاسمه، فعظم أمره عند الإسبان وتكررت حاجتهم له في الترجمة من القشتالية إلى العربية، وحصل على رخصة للقيام بتلك المهمة. استقرت فكرة الفرار إلى بلاد الإسلام في ذهن أفوقاي رغم صعوبة ذلك والخطر المحدق بكل من تسوّّل له نفسه بالهرب، وفي عام ١٥٩٩ م سافر أفوقاي إلى إشبيلية ثم عبر مرفأ سانتا ماريا على متن سفينة محمّلة بالقمح حتى وصل إلى المغرب وتحديدًا إلى مستعمرة برتغالية تُسمى (مازكان) أو البريجة ومكث فيها متحجّياً الفرصة إلى الهروب، إلى أن تسوّّل له ذلك ففر إلى مدينة أزمو المغربية، وهناك دخل في حماية السلطان أحمد المنصور الذهبي فأثنى على معرفته وعلمه وعيّنهُ ترجماناً بالبلاط الملكي، وأسماه شهاب الدين.

أوفده السلطان في مهمة إلى أوروبا (قشتيليو، ٢٠٠١)، عام ١٦١٢ حيث رافق وفداً من الموريسكيين وقعت لهم سرقة بأربع مراكب فرنسية نقلتهم من إسبانيا، فحمل رسائل السلطان إلى رئيس الجالية الأندلسية وأخرى إلى رئيس القضاة بمدينة بوردو الفرنسية. وقد وثق أفوقاي ذلك في رحلته الشهيرة "الشهاب إلى لقاء الأحباب". وقد "عُرف عن الحجري "أفوقاي" ولعه الشديد بمناظرة النصارى واليهود في عقيدتهم والرد عليهم فيما يتهمون الإسلام فيه، وقد أظهر معرفة عميقة بكتبهم السماوية وعقائدهم المتباينة. وقد دوّن هذا الاختصار لرحلته بعد عقدين ونيف من القيام بها، استجابة لطلب من شيخ المالكية في مصر علي زين العابدين الأجهوري" (الشمال، ٢٠١٥)، اتخذت رواية الموريسكي من هذه الرحلة متكاً تاريخياً لكتابة الرواية.

علاقة عنوان الرواية بالمحكي

تمثلت عتبة العنوان "الموريسكي" بكلمة واحدة معرفة بآل، وهي اسم منسوب للموريسك، وهي كلمة فردية الدلالة جمعية المفهوم، بمعنى أنه يصل إلى المجموع من خلال الفرد. وتحيل على إنسان مرّ بظروف تهجير قسرية، مما يعني حالة من التعاطف الذي سيتجلى في سرد مشاهد حقيقية مرّ بها تاريخ الموريسكيين، ويتخذ العنوان "الموريسكي" يقول الراوي: "كنت منفياً وسأبقى منفياً إلى الأبد ... هو ذا أنا في منزلة بين المنزلتين. أدركت وضعي كمنفي بين الحياة والموت ... لا أعرف هل سيأتي يوم يعمد فيه أحد ما ليقدم لنا اعتذاراً عن كل الآلام التي كابدناها نحن الموريسكيين" (الرواية، ١٠٦) ينطلق السارد/ البطل من فرديته إلى ضميره الجمعي، بوصفه علامة نصية يمثل فصيلاً أندلسياً مضطهداً ومقموعاً ومصادراً. يقول السارد: "كنت أجد العزاء في وعي التاريخي ... نعم أنا مُطوق بدين تجاه جماعتي، وأشعر بواجب الإدلاء بالشهادة حول مأساتهم" (الرواية، ٢٠٠). فالموريسكي علامة لغوية مقترنة بأحمد بن قاسم الحجري "أفوقاي" يُعالج تاريخاً خاصاً بالشخصية وتاريخاً عاماً متصل بالـموريسكيين وتثير المسكوت عنه، فأفوقاي يمثل تاريخ شعب مضطهد ويعكس معاناته أكثر منه يقدم تاريخه الشخصي.

تاريخ رواية الموريسكي

يرتحن تاريخ الرواية إلى ثلاثة فضاءات مرت بها شخصية أفوقاي هي: الأندلس، المغرب، أوروبا. يمثل الفضاء الأول: الوطن السليب، والثاني: الوطن البديل بما يتضمنه من حوار مع الأنا المقسمة وجراحها، ويمثل الثالث: أرض المهجر والحوار مع الآخر. وهذا يضعنا أمام مكونين أساسيين للتاريخ في هذه الرواية:

التاريخ الخاص

ويمثل المسار الحياتي الخاص لأفوقاي بطل الرواية وساردها متوافقاً مع ما ظهر عليه في التاريخ الموثق، استناداً إلى رحلته المذكورة.

أبعاد شخصيته

هو ابن لموريسيكي فلاح كان فقيهاً بأمور دينه، تمسك بثوابته رغم قهر القشتاليين لبني جلدته "كنت ألاحظ حركات هذا الفقيه الذي من أجل إخفاء هويته كعالم دين تنكر في هيئة فلاح يحرق الأرض" (الرواية، ١٧). نشأ هذا الفقيه في حي البيازين في غرناطة، وحمل الفقه أمانة لولده أحمد شهاب الدين أفوقاي.

كان شهاب الدين عارفاً باللغتين القشتالية والعربية، متفهماً بأمور الدين، مُطلعاً على المسيحية واليهودية. تعرّض في حياته لمآسي عديدة، كمقتل أخته في الأندلس، و وفاة والده، واعتكاف والدته كمدأ عليهما في أحد الأديرة في الأندلس. وقد أظهر شهاب الدين قدرة جيدة على الججاج والمناظرة والوعظ والتوجيه، وقد استشعر مسؤولية كبرى في الإغلاء من قضية شعبه الموريسيكي، وكان يحمل فكراً دينياً معتدلاً وجيد الفصحي.

يؤكد أفوقاي سبب رحلته إلى أوروبا بقوله: "واتفق لكثير من المسلمين الأندلس عند خروجهم أن نهبهم في البحر النصارى وأكثرهم الفرنج البحرية ... وجاؤوا إلى مدينة مراكش.. وطلبوا من السلطان مولاي زيدان.. أن يأذن لهم في إرسال بعض من أصحابهم مع رجل من الأندلس الذين كانوا قبلهم بتلك المدينة، واتفق نظرهم أن نمشي بأصحابهم، وأعطانا للسلطان كتابه وذهبنا إلى أسف.. وفيها ركبنا وبلغنا إلى بلاد الفرنج، ووقع لي كثير مع علمائهم من القسيسين والرهبان والقضاة في شأن الأديان... ونصرني الله عليهم مراراً عديدة" (أفوقاي، ٢٠٠٤).

الوقائع النوعية في حياته

تتسلسل الرواية تسلسلاً يتوافق والنمو الزمني للأحداث بنسق سيري دقيق، وكانت أبرز الوقائع النوعية في حياة شهاب الدين أفوقاي تتمثل في:

- حياة الطفولة والصبا في قرية الحجر الأحمر في الأندلس والتربية الدينية التي خضع لها.
- بزوغ نجمه مترجماً عارفاً بالقشتالية والعربية، جعله مستشاراً لغويّاً لرجال الدين المسيحي.
- صبره على مقتل أخته، و وفاة والده كإفراز من إفرازمات الحقد الطائفي الذي مارسه محاكم التفتيش.
- انزواء والدته في أحد الأديرة حزناً على مقتل ابنتها و وفاة زوجها.
- هروب شهاب الدين أفوقاي إلى المغرب عام ١٥٩٨م؛ طلباً للحرية ومحافظة على الدين واللغة والنفس.
- لقاء السلطان أحمد المنصور الذهبي وتسميته بشهاب الدين، وتعيينه كاتباً ومترجماً في بلاطه.
- زواجه من ابنة القاضي الركري، ثم لقاءه بالعالم المالي أحمد التنبوكي والعالم ابن يعقوب.
- تكليفه من قبل السلطان زيدان بالسفارة إلى أوروبا ١٦١١م.
- تنقله بين مدن هولندا وفرنسا لأداء المطلوب والدخول في مناظرات دينية مع بعض أصحاب الفكر، ومقابلته للفتاة الفرنسية أوجيني التي أثرت في شخصيته.
- العودة إلى مراكش، ثم سلا الجديدة، ثم الاستقرار في توزر التونسية ١٦٤٢م.

هذه أحداث جسام ومثيرة مرّ بها أفوقاي في حياته المديدة، فأكسبته طابعاً نوعياً خاصاً يغلب عليه المسؤولية نحو الجماعة التي ينتمي إليها وقدرته على مواجهة الصعاب في بيئات مرجعية ثلاث: الأندلس، المغرب، أوروبا التي زارها سفيراً، مما يجعل سيرة حياته صالحة للتناول الروائي ضمن علامات نصية تاريخية مثبتة ودالة وقابلة للتأويل.

أبرز آرائه الفكرية

برزت الآراء الفكرية لأفوقاي بروزاً يشير إلى ذلك الصراع المستمر مع الآخر تارة، ومع الأنا المنقسمة تارة أخرى. وكون السارد هو أفوقاي نفسه فإن آراءه الفكرية كانت تعرض من خلال حكي السارد ووجوده راوياً يتحكم بمسار الحكي. وبعض الأفكار كان يوردها على لسان شخصيات أخرى حقيقية أو متخيلة من خلال محكي الأقوال، فتكثر الملفوظات الخطابية للسارد (التأملية، الفلسفية، الأدبية) للدفاع عن قضية شعبه، ومن ذلك:

الرأي	الشاهد
١ تبرير التبدل القسري في العقيدة	ما أورده على لسان والده "تظاهر بما لسا في حقيقة الأمر، ولكن للحفاظ على أسمى ما وهبنا الله: الحياة. لقد أكرهونا على التحول عن عقيدتنا. الإيمان لا يُصنع بقرار" (الرواية، ٢٩).
٢ واقع تنصر المورييسكيين	"كان المسيحيون الجدد مسيحيين سيئين، ولكنهم كانوا أيضاً مسلمين سيئين" (الرواية، ٤٩).
٣ التمسك بالواقعية السياسية، أي تحييد الرؤية المثالية للحكام، والتنبه إلى الوسائل البراغمية في سياستهم.	"تعلمت كيف أتجرد من رأيي المثالية التي كانت لي عن السياسة وعن البلاط، إنهما كم هائل من الحسابات ومن الضربات ومن الدسائس" (الرواية، ٨٠)
٤ مكانة اللغة العربية عنده	"لم يكن بإمكانني قبول أن تصبح اللغة الدارجة لغة الكتابة أو الفكر، ولا كنت أستطيع فهم ذلك. بالنسبة لي اللغة العربية هي اللغة المصطفاة بامتياز" (الرواية، ٨٩)
٥ في نقد عقلية السلطان أحمد المنصور الذهبي	"فالمصور رغم عبقريته لم ينفك يكرّر نفسه بينما العالم يتغير من حوله. كان في حاجة لأفكار جديدة" (الرواية، ١٠٥)
٦ الشعور بالنفي والاغتراب	"كنت منفيّاً وسأبقى منفيّاً إلى الأبد. لن يكون بإمكانني ... أن أتحدث بعاطفة متوقدة عن بلد المغرب وتاريخه ومستقبله" (الرواية، ١٠٦)
٧ تفريط الإسبان بالمورييسكيين	"كان من شأن الإسلام الجامد للأندلسيين أن يتطور في علاقة سليمة مع المسيحية. كان بإمكاننا أن نكون فرصة حظ لقسالة التي لن يكون عليها أن تحمرّ خجلاً من الحمراء والخيرالدا وجامع قرطبة، ولا من ابن رشد وابن عربي" (الرواية، ١٢٢)
٨ في فلسفة التشريع الإسلامي	"الخمر سبيل الغواية. هناك بطبيعة الحال من يتحكمون في أنفسهم، لكن الله لا يشرع للحالات الاستثنائية" (الرواية، ١٣٥)
٩ التسامح والعمق في تقدير الأمور	"كنا، مسلمين ومسيحيين، جيران في أرض الأندلس، ولكن العداوة التي كانت تطبع علاقتنا، جعلت كل معرفة متبادلة مستحيلة. إن حي لأوجيني هو الذي حطم الأفكار المسبقة التي تُغشي نظرتي" (الرواية، ١٥٦)
١٠ نضج الرؤية اتساع الأفق	"لن نقترف خطأ القشتاليين الذين عمّدوا المورييسكيين دون أن يعلموهم" (الرواية، ١٧٥).

تنتسب المرجعية النصّية للرواية إلى التاريخ الخاص بالمورييسكيين والغاية تعميق الوعي بمأساتهم ضمن سياق سياسي واجتماعي وحضاري. أما استحضار التاريخ الخاص بأفوقاي فللوصول إلى تاريخ المورييسك من خلال الموازنة بين المرجعية الخاصة للشخصية والمرجعية العامة للمورييسك.

التاريخ العام

عتبات الرواية وعلاقتها بتاريخ المورييسكيين

انغمست الرواية بعرض مفصل أساسية من التاريخ السياسي للمورييسكيين وصراهم في الوجود، وقد دلّ على ذلك:

- عنوان الرواية: المستقر على لفظة واحدة مباشرة ومخصّصة، هذا التخصيص هو بمثابة إعلان وجود ومقاومة للنسيان وهضم الحقوق.

- الإهداء: ونصّه "إلى الذين لم يقف التاريخ عند مأساتهم وأحاطهم النسيان، إلى ذكرى الموريسكيين" (الرواية، ٥). ويمثل الغاية من كتابة الرواية.
 - المقدمة: ذكر مرجعيه المهمين في استدراك هذا التاريخ: مختصر رحلة أفوقاي، وكتابات المؤرخ الموريسكي قشتيليو، وهاتان العتبتان رهان واضح على مرجعية الرواية.
 - عناوين الفصول: جاءت مقسمة تاريخياً، استهلها حسن أوريد بعرض ملامح عن تاريخ مأساة الموريسك:
 - "بلدة الحجر الأحمر في خاصرة جبال البشارات ١٥٨٥-١٥٩٥"، وهي مسقط رأس شهاب الدين أفوقاي، وقد ربطها بثورة الموريسك الشهيرة.
 - "مراكش ١٥٩٨-١٦٠٣" وتمثل المنفى والوطن البديل.
 - "امستردام ١٦١١"، وتمثل الرحلة إلى محاورة الآخر.
 - "مراكش ١٦١٣" وتمثل العودة.
 - "سلا الجديدة ١٦١٥-١٦٣٧"، وتمثل مستقر الموريسكيين في المغرب.
 - "توزر ١٦٤٢"، وتمثل نهاية المطاف لأفوقاي.
- وهي عتبات مكانية وزمانية مزدوجة متسلسلة ذات دلالات سياسية واجتماعية لأفوقاي، بُنيت على قانون التكرار والكثافة المرجعية.

التاريخ السياسي

- وأبرز الإشارات المشكّلة للمرجعية التاريخية للرواية تمثلت في الشواهد التالية:
- ثورة البشارات "منذ ثورة البشارات والملاحقة فظيعة.. أنا عشت ذلك التمرّد وقد أثر فيّ بشكل عميق. لقد فرضوا علينا أن نغيّر معتقدنا الديني. هكذا صرنا ملزمين بإظهار اعتناقنا للدين المسيحي وأن نمارس ديننا خفية لكي نبقي على حياتنا". (الرواية، ١٧)
 - "إنّ توجهات رجال الكنيسة كانت تذهب في اتجاه تنصير شبه الجزيرة الإيبيرية، وذلك لإكراه الأقليات على التنصّر أو طردها". (الرواية، ١٨)
 - "منذ انتفاضة الموريسكيين في ١٥٦٨ بدأت محاكم التفتيش تعمل على أن تفرض نفسها" (الرواية، ٢٤).
 - "في سنة ١٥٦٦ تم تبني مرسوم فرض على الموريسكيين التخلي عن استعمال اللغة العربية في أجل أقصاه ثلاث سنوات" (الرواية، ٣٣).
 - "هل كنا سنتوجه للأتراك أو المورو لو تركنا نمارس شعائنا الدينية في أمن، في دورنا وبأرضنا" (الرواية، ٣٥)
- وهذه المرجعية النصّية لرواية الموريسكي تضعها في إطار مرجعي تاريخي مباشر متوافق مع ما وثّق في الكتب التاريخية ذات الشأن، مع مراعاة اشتراطات البنية السردية للرواية.

التاريخ الاجتماعي

- رافق هذا العمق السياسي لمأساة الموريسك علامات نصّية اجتماعية بما تشمله من عادات وتقاليد وممارسات يومية، ومن ذلك:
- "لا شيء ينبغي أن يفضح انتماءنا للدين الإسلامي: نذهب للقدّاس، لا نعمل يوم الأحد، نشغل يوم الجمعة، نلتزم بكل المحرّمات التي أقرتها الكنيسة والمتعلقة بأعيادنا ولباسنا ولغتنا" (الرواية، ١٦).

- "أيّ مشهد محزن هو رؤية هؤلاء الصنّاع المتفانين في عملهم... وقد تحوّلوا إلى الفقر المدقع، يتسولون كسرة خبز لطفل جائع أو امرأة مرضعة" (الرواية، ٣٥).
- "كنا نكتب القشتالية بحروف عربية، وهي ما كان يُسمّى بالخيمايدو تحريفاً لكلمة الأعجمية" (الرواية، ٢٨).

القمع والتطهير العرقي

عمّقت الرواية تاريخ المورييسك أكثر بالتركيز على مظاهر قمع المورييسكيين وإلغاء وجودهم قتلاً وتهجيراً وطمساً لهويتهم الدينية والاجتماعية، لقد أفلح أوقاي في رسم فضاء الخوف ونُذره التي حاصرت المورييسكيين في الأندلس، وقد اختصر في ذلك كثيراً حتى لا يؤثر على مسار رحلته وسفارته باسم سلطان مراكش، ووصولاً إلى تحقيق الأهداف الإيديولوجية لهذه الرحلة (الشمال، ٢٠١٥، ص ٩٨٠). ومن شواهد ذلك:

- "منذ انتفاضة المورييسكيين في ١٥٦٨ بدأت محاكم التفتيش تعمل على أن تفرض نفسها ضد القوى التي أخذت في الإذعان لواقع الأمر" (الرواية، ٢٤).
- "إننا في أعين أعضاء محاكم التفتيش أشرار هراطقة يرفضون رسالة المسيح، لكن رسالة المسيح حُرقت وشُوهت. وكيف يريدون أن نعتنقها وقد تمّ النيل منا حتى النخاع؟" (الرواية، ٣٠).

- "كنت في زهرة العمر، ومن حينئذ، البيازين، كنا نتابع عاجزين، المقاومة البطولية لأهلنا في جبال البشارات. وكان موطن المقاومة هذا، حي البيازين، تحت أنظار مراقبة مشددة... وبعد ما حلّ بمقاومة جبال البشارات لم نسلم من الاضطهاد. لقد تمّ ترحيلنا كلنا... بعدما جُردنا من ممتلكاتنا، وفُصلنا عن ذويّنا" (الرواية، ٣٥).

تعمّق هذه الشواهد المرجعية التاريخية والسياسية والاجتماعية لمأساة المورييسك تعميقاً موثقاً بعيداً عن الاستثارة العاطفية نظراً لسندها التاريخي الذي فرض نمطاً قائماً على الشك والقمع والإبعاد بين حضارتين؛ إذ تفتّح المرجعية التاريخية العامة للرواية على تاريخ رمزيّ، تاريخ يتجلى في التراث المتنوع الذي يحتكم إليه المجتمع في طقوسه وأعرافه وتصوّراته... تاريخ اجتماعي تتحكم به القوة الغاشمة.

آليات بناء المرجعية التاريخية في النصّ الروائي

يستدعي تمثيل المرجعية التاريخية في الرواية إلى تحديد آليات قادرة على تنظيمها وتأويلها، فالتاريخ يتحول إلى مادة محكومة لاعتبارات فنية جمالية تخيلية خالصة عند توظيفه في النصّ الروائي تفصله عن تطابقه المفترض مع سياقه التاريخي الموثق، إذ "تسعف سلطة التخيل في تشييد مرجعية نصية تضبطها خصائص الجنس الروائي الحكائي والخطابية" (التمارة، ٢٠١٣، ص ٧٨). هذا التخيل خاضع لمبدأ التمثيل، أي "الكيفية التي تقوم بها النصوص في إعادة إنتاج المرجعيات وفق أنساق متصلة بشروط النوع الأدبي، ومقتضيات الخصائص النصية، وليس امتثالاً لحقيقة المرجع، باعتبارها مجموعة أنساق ثقافية محمّلة بالمعاني الاجتماعية والنفسيّة والفكرية في عصر ما" (إبراهيم، ٢٠٠٣)، يقول كريزينسكي إنّ ما ينظم عوالم النصّ الروائي هو النماذج المرجعية والإيديولوجيات والإكسيولوجية والتناصية والجمالية والواقعية (كريزينسكي، وعقار، ١٩٨٨).

وقد اقترح كريزينسكي خمس آليات (التمارة، ٢٠٠٣)، تبني مرجعية النصّ الروائي عامة باعتبارها آليات دلالية وفنية تكفل حركية الرواية وتطورها هي: الوساطة المرجعية، التذويت المرجعي، المزج المرجعي، الوهم المرجعي، الكثافة المرجعية.

اشتغلت رواية "المورييسكي" ظاهرياً على التاريخ الخاص لأوقاي والتاريخ العام للمورييسكيين شمولياً، فمن خلال تسليط الضوء على شخصية أوقاي جرى إضاءة تاريخ المورييسكيين، متطرقاً إلى بعض القضايا الخاصة بأوقاي بوصفه إنساناً له خصوصيته.

الوساطة المرجعية Referential Mediation

وتتأني فكرتها من إيجاد توافق فني بين النصّ الروائي بعلائقه النصية ومرجعياته التاريخية الخارج نصية، وهي "تشكيل ينزع إلى إقامة علاقة تمثيل مع المرجعية الخارج نصية وليس علاقة تطابق معها" (التمارة، ٢٠٠٣، ص ٨٠)، وهذا يعني أنّ

المادة التاريخية لا بد أن تخضع لاعتبارات فنية تبعدها عن قانون التاريخ ومتطلباته، فهي غير مطالبة بنقل الحقيقة كما هي، يقول امبرتو إيكو: "العوالم السردية لا تقول الحقيقة، ولكنها لا تكذب، فهي تصف حدود الحياة التي نحيها ولكنها تنزاح عن المعيشي الواقعي" (إيكو، ٢٠٠٥، ص ٩). وهنا يتخذ السارد السيميائي بعد إدماجه في السياق السوسيو- ثقافي حالة إبدال ووساطة بين ما هو خارج النص أو ما قبله وبين النص (كريزينسكي وعقار، ١٩٨٨).

وما سبق يتيح تحريراً للدلالة النصية، ويغني رمزيته، بفضل ما تختزنه قدرات الرواية من خصائص سردية وأسلوبية قادرة على تلبية متطلبات المرجعية لرفعها من مستوى الإخبار إلى مستوى الحوار وإعادة القراءة، ونفياً لأي عشوائية يمكن أن تكتنف تشكيل مرجعيات النص الروائي. يقول محمد الخبو: "مراجع النص تجيء مخلوطة بجهات اعتقاد المتكلم فتتلون بها، ولذلك تحجب هذه الجهات الوجوه الحقيقية التي للمراجع في الأصل وقد التبتست بمعتقدات المتكلم وأحواله" (الخبو، ٢٠٠٦، ص ٧٧)، وتنحصر الوساطات حسب بول ريكور (ريكور، ٢٠٠٤)، في العلامات، والرموز، والنصوص. وهي عناصر ذات دلالة سياقية تتفادى التطابق مع الواقع، وتتيح "إمكانية التقاط الرواية عناصرها النصية من السياق المنتج للنص الروائي قصد تشييد مرجعيته وفق طابع تخيلي" (التمارة، ٢٠٠٣)، قوامه التمثيل والاختيار المرجعي تلبية لمقتضيات النمذجة الجمالية التي يسعى إليها النص الروائي، وهي نمذجة تتشكل وفق "مقولات الاختلاف والاحتمال والانفتاح" (التمارة، ٢٠٠٣، ص ٨٤).

ومن أبرز الإشارات التاريخية الواردة ضمن إطار فني إخباري جمالي ما يلي:

- سقوط غرناطة: "فمنذ سقوط غرناطة، ورغم العهد الموقع ... الذي يتضمن الاعتراف بحقوق الأقليات في ممارسة معتقداتها الدينية، فإن توجهات رجال الكنيسة كانت تذهب في اتجاه تنصير شبه الجزيرة الإيبيرية". (الرواية، ١٨)
- "منذ انتفاضة المورييسكيين في ١٥٦٨ بدأت محاكم التفتيش تعمل على أن تفرض نفسها ضد القوى التي أخذت تفكر في الإذعان لواقع الأمر، والتي لم تكن تعتبر تنصير المورييسكيين أولوية، على اعتبار أنهم ضروريون للاقتصاد" (الرواية، ٢٤)
- أخذوا أطفالهم بعد تهجيرهم، الأسوأ من ذلك أن أخذ الحراس الأطفال الأصغر سناً، بعد أن فصلوهم عن آبائهم إلى وجهة غير معروفة" (الرواية، ٣٦)
- "ظل حيّ البيازين بؤرة المقاومة، لكنه عرف كيف يتستر عليها. هناك المقاومة السلبية تجاه خصم أكثر قوة" (الرواية، ٣٣)
- "رخل السلطان مولاي أحمد المنصور الذهبي إلى مراكش عائلات متنفذة وأعياناً بعرض قطع صلاتهم مع قواعدهم ولكي يبقوا تحت مراقبته" (الرواية، ٨٠).
- "لم أعهد فصل ربيع في مراكش أجمل من هذا الذي صادف حركة السلطان نحو فاس. لقد بعث بابنه مولاي زيدان، حاكم تادلا إلى الطرق المؤدية إلى فاس لكي يقطع طريق المسافرين عبر سهل تادلا وجبال فراز" (الرواية، ١٠٣).
- "جاؤوا مع آلاف المطرودين الآخرين من الأندلس في شتنبر ١٦٠٩ (١٠١٨ هجرية) بقرار من ملك إسبانيا فيليب الثالث. كان ذلك من سنتين. استقروا في الضفة اليسرى لمدينة سلا. فقدوا كل شيء، والقليل الذي حملوه معهم نُهب من طرف قراصنة بلاد الإفرنج" (الرواية، ١١٧)
- "جمع السلطان مولاي زيدان متاعه ما أن تناهت إليه إشاعات تقدم أبي محلي وذهب باحثاً عن المدد عند قبائل حاحا. وقد توجس البرتغاليون خيفة من خطاب الداعية الصحراوي المتوعد. وبدأ العديد من الذين كانوا ينتقدون أبا محلي يجدون مبررات لما يقوم به، بل إن بعضهم صار من أشد أنصار رجل تصدى للدفاع عن الإسلام، وإحقاق العدل، وطرده المسيحيين الذين يحتلون موانئ دار الإسلام" (الرواية، ١٦٦)

هذه الإشارات التاريخية وغيرها مثلت وساطة مرجعية لبناء المستوى الحكائي للرواية، وقد تضمنت حياة أوقاي الذي تدخل ببعضها وفرضت منطقتها عليه في بعضها الآخر، وقد ظهر فيها ضمير المتكلم الذي يتمثل دور الشاهد السارد السيميائي، وقد اتخذت هذه العلامات التاريخية مرجعية للعمل ضمن بنائه السردية الكلي المشارك بالحدث.

وهو من متعلقات الذات المنتجة للإبداع فيما تقدمه من رؤية وما تنجزه من بناء سردي، والرؤية منوطة بالخلفية المعرفية الخاصة بالذات، والبناء مقترن بفنية الكتابة وجمالياتها. وتبدو الذات متعارضة ابتداء مع المرجعية التاريخية لأنها قد تقدم رؤية مغايرة للتسلسل التاريخي ووثائقيته المفترضة لكن التذويت عند كريزينسكي (التمارة، ٢٠٠٣) يتكون من خلال حبكة ذاتية، وتقييد وجهة النظر بدلالة ذاتية سردية، وهذه الذات ما يفترض أن تُستثمر بشكل خاص. إن التذويت في النص الروائي هو الاتصال العلائقي بين المرجعين النصي والذات النصية ضمن نسق روائي يحكمه التخيل، فتتحدد هوية التذويت المرجعي في اختراق المرجعية النصية للرواية بعلامات دالة على ذات متخيلة لها امتدادات اجتماعية ونفسية ومعرفية. مما يعني حضور ذات الراوي مدعومة بذاتية الكاتب جنباً إلى جنب مع البعد المرجعي التاريخي للرواية. والملاحظ "إن النص التطوري للرواية الحديثة يعمل على تفريغ فضاء الحكيم وتسييج فضاءات أخرى من قبيل فضاء اللافظ، أي فضاء الذات التي تبذل جهدها كي تحكي عن ذاتيتها الجامحة، ... وفضاء الملفوظ يتعلق بتلك البقايا والترسبات الحكائية التي يستعيدنها ويحددها تضافياً سنن الاتصال الاجتماعي، إنه فضاء اندراج صوت الآخر" (كريزينسكي وعقار، ١٩٨٨).

أما وظيفة التذويت المرجعي في الرواية فتتمثل في أنها إحدى آليات البنية السردية للروايات ذات المرجعية التاريخية، وتمثل حضور الإنساني في ضمير السرد حضوراً مبنياً على تشييد عالم سردي بقانون جمالي، قادر على تعميق الدلالات وتناسلها، يقول محمد الخبو: "المراجع المتموضعة مشوبة بعمق الآثار الذاتية للراوي المدرك للأشياء إدراكاً خاصاً، فيما يوهم بإدراكها إدراكاً محايداً" (الخبو، ٢٠٠٦).

يتصدى مبحث الصيغة السردية للتفصيل في الذات الحاكية وتعالقها بذوات أخرى قادرة على الحكيم، وهي ذوات تمتلك منظورها الخاص الذي يزاحم منظور المرجعية التاريخية الموثقة للنص. والسارد حسب كريزينسكي إما أنه بديل ومضاعف للمؤلف – الذات، وإما أنه بنية تناوب وإبدال ذات خاصة جدلية بين المؤلف – الذات وما هو واقعي (كريزينسكي، وعقار، ١٩٨٨، ص ١٦٤)، والسارد هو من يوفق بين فضاءات السرد والموازي السري، وهذه الحركة من السارد محددة بالوظيفة التأويلية للسرد بوصف السارد العامل اللفظي للمؤلف وهو صوت للرموز ينهض في النص الروائي بدور المنظم للعلائق بين الوعي الفردي والوعي الجمعي (كريزينسكي وعقار، ١٩٨٨).

اتخذت رواية الموريسكي من شهاب الدين أفوقاي راوياً متكلماً في الرواية في مستوى عالٍ من تذويت السرد وإعلاء شأن الصوت السري الذاتي بوصفه المنجز للغة الواصفة، بما أنه هو ذلك الشخص الذي يضطلع داخل الخطاب بنقل الرسالة السردية (البايوري، ١٩٩٣)، وقد توزعت ذاتية الراوي على جانبين، هما الألم والأمل.

زاوية الألم (ما بثه أفوقاي من آلام)

تتجه هذه الزاوية فيما يتلفظ به شهاب الدين أفوقاي معبراً عن آلامه المسيطرة على ذاته ذات المرجعية الشخصية أو الجمعية. ومن الهموم الذاتية التي ألمت به قلقه على أخته زهرة "بلغت أختي زهرة ثمان عشرة سنة وكانت جاهزة للزواج. ما العمل إن تقدم لخطبتها مسيحي أصيل؟" (الرواية، ٢٩)، "انقلبت حياتي رأساً على عقب بفعل ما كشفته لي زهرة. لم يكن بإمكانني إخبار أي أحد" (الرواية، ٤٧)، ثم اختفت زهرة في ظروف غامضة وبعد أيام اكتشفوا جثتها: "لحق والدي بزهرة بضعة شهور بعد ذلك وقد هذه الحزن والأسى. انزوت والدتي في دير للدومينكان. كان حزنها أكبر من كل اعتقاد ديني. ألحّت عليّ أن أهجر مسقط رأسي الذي لم يعد يطاق" (الرواية، ٥٤). وأفوقاي يختصر في بضعة شواهد سريعة تشتت عائلته وفنائها وما رافق ذلك من ألم وحرقة لم يرفع من مستواها فتطغى على ما ألم بالموريسكيين من قمع وإبادة وتهجير.

أما الهموم الجمعية التي بثها في ثنايا الرواية فعديدة تتمثلها العلامات النصية التالية، وهي علامات مدعمة بالبعد الذاتي للسارد:

– خلل العقيدة لدى أهل مراکش: "أذهلني تعلق أهل مراکش بأوليائهم الصالحين. لو لم يكن قاضي المدينة الركري، وهو رجل ورع وعتي ومتفان جداً، لأمضيت وقتاً طويلاً في التكيف مع حياتي الجديدة" (الرواية، ٧٦)

– إصرار الإسبان على التخلي عن المورييسكيين وتهجيرهم من وطنهم: "كان بإمكاننا أن نكون فرصة حظ لقشتالة التي لن يكون عليها أن تحمر خجلا من الحمراء والخيرالدا وجامع قرطبة، ولا من ابن رشد أو ابن عربي. إنهم منجزاتها الرائعة، وهم أولادها" (الرواية، ١٢٢). إن هذا المستوى من التذويت لا يتوافق مع السند التاريخي الذي حاول أفوقاي بثه في رحلته إلى أوروبا فمناخ العداء بين ذهنية الإسبان المبنية على القمع والاستبداد والعنف والإقصاء، وذهنية المسلم المورييسكي المهجر الباحث عن هوية مفقودة، جعلت من رحلة "أفوقاي" ميداناً لصراع الإيديولوجيات، فاتخذ من هذه الرحلة وسيلة لإثبات الذات ومجابهة الإقصاء بإقصاء مضاد (الشمالي، ٢١٠٥)، يقول أفوقاي في نهاية رحلته: "ونسأل الله العظيم أن يكون هذا الكتاب السيف الأشهر على كل من كفر. وبرهانه يظهر" (أفوقاي، ٢٠٠٤).

– حالة الانقسام القسري التي أجبر المورييسكيون أن يعيشوها: "حتى أولئك الذين ارتدوا إلى المسيحية رُحلوا وعجزوا عن فهم ما تعرضوا له من آلام وتنكيل. أغلبهم لا يعرف من الإسلام إلا نفعاً، ومعرفتهم باللغة العربية ضعيفة، بل منعدمة" (الرواية، ١١٧)

– حالة التشكك بالأنا لو تبدلت الأمور، يقول أنتاني رفيق أفوقاي: "سنعيد استنساخ نفس الأخطاء. كنا سنتصرف بنشوة النصر العسكري على نفس طريقة رجال محاكم التفتيش. سنفرض الآخر، وسنجره على أن يشبهنا. سنؤجج الضغائن والأحقاد" (الرواية، ١٢٣)

زاوية الأمل (ما عقده أفوقاي من آمال)

- تبرير الخروج من الأندلس: "لم نهجر ديارنا إلا لأننا لم نكن قادرين على ممارسة ديننا في أمن وأمان" (الرواية، ٥٩)
- الهروب إلى الحلم، بوصفه علامة تذويت عليا: "حلمت ببلدي الأندلس ورأيتني وأنا صبي أخب على صهوة حصان بدون سرج وأبي يناديني باسمي العربي أحمد من دون خوف. وتداخلت هذه الصورة مع صوت الآذان في بلدة الحجر، مسقط رأسي، وقرع أجراس الكنائس، ثم صحت بغتة على أصوات قادمة من جميع الاتجاهات" (الرواية، ٦٠)
- الأمل في إسلام متسامح عقلائي: "هكذا كنت أفهم الإسلام وهكذا كنت أتصور علماء الذين يتميزون بقوة يقينهم وثباتهم كما هو مجسد في هذين العالمين. من المؤكد أننا جميعاً هامشيون لا يؤخذون بعين الاعتبار في مجريات الأحداث" (الرواية، ٨٦). كانت لدي صورة مثالية عن المجتمع المسلم أو دار الإسلام" (الرواية، ١٠٥)
- وعند الموازنة بين علامات الأمل، وعلامات الأمل، نجد أفوقاي لا يغلب بعده الشخصي في ضياع وطنه وفناء أسرته على همه الجمعي الذي يحمل القضية ويعلي من شأنها، فالتذويت الفردي حاضر إلى جوار التذويت الجمعي وهما نسقان يدعم بهما السارد السيميائي المرجعية التاريخية التي توافقت تماماً مع ما عقده أفوقاي من آلام وآمال.

المزج المرجعي Referential mixing

يقترن المزج بتفاعل العناصر النصية وتكاملها وانتظامها في إطار تركيبي لبنيات النص الروائي وفق المرجعية المتوخاة، حيث يرى كريزنيسكي (التمارة، ٢٠٠٣)، أن هذا المزج يعين على بناء مرجعية النص وفق إجراء مزدوج، الأول يتخذ طابعاً سيميائياً يخلص العلامات النصية من طابعها المباشر، والثاني يركز على تنوع الخطابات والنصوص المحكومة بالتعدد والاختلاف في بناء النص الروائي. بمعنى أن النص الروائي محكوم لمكونات خطابية ومكونات سردية تتحدد علاقاتها بالتفاعل والدينامية بين الأسلوب والدلالة والفضاء والسرد، وهذا أمر قائم على المزج الباعث على جمالية النص الروائي.

و"بناء مرجعية النص الروائي يتحكم فيها عنصران؛ أحدهما لغوي والآخر تقني" (التمارة، ٢٠٠٣)، واللغوي يجعل من أسلوب الرواية ومعجمها منفصلاً عن المرجعية المباشرة، والتقني يصنع عالماً سردياً منظماً وخاضعاً لمقتضيات السرد الروائي وملبياً لمتطلبات المرجعية التاريخية للنص الروائي، الذي هو "توليفة مركبة من العلامات، والدلالة ترتكز على الشفرات والبنى الناشئة من العلامات القائمة بين العلامات كما هي متجلية ضمن تصور النص" (سلفرمان، ٢٠٠٢). ويبقى النص الروائي في بعده الدلالي مسؤولاً عن مرجعيته الخارج نصية، وفي بعده الجمالي مسؤولاً عن تبرير اختيار الخطاب السردية المناسب

للمرجعية التاريخية؛ إذ "يساهم المزج المرجعي في الاتساع الدلالي للمرجعية النصية للرواية، وتخليصها من أي مدلولات محدّدة ومحصورة، فتقترب المرجعية بتنوع دلالي. هكذا يصبح المزج المرجعي آلية لبناء نصّ روائي وفق نسقين متكاملين؛ الأول: نسق تأليفيّ تحكمه علاقات نصية بين علامات النصّ الروائي المتنوعة والمتعدّدة. والثاني: نسق رمزيّ تؤطره منظومة من المدلولات تنفتح عليها تلك العلامات النصية" (التمارة، ٢٠٠٣).

لقد أبرزت المرجعية التاريخية لرواية "الموريסקي" موضوعات ذات بعد مرجعيّ صنعها التاريخ بعموميته متّحدة بخصائص مميزة لشخصية أفوقاي، فكشف عن عوالم مرجعية مستقلة من تاريخ الشخصية الخاص أيضاً، ويمكن الوقوف على علامات ذات بعد فكريّ وأخرى ذات بعد اجتماعيّ قائمة على المزج المرجعيّ:

الشواهد الفكرية

- الإيجار على التخلي عن اللغة العربيّة: "في سنة ١٥٦٦ تمّ تبني مرسوم فرض على الموريسكيين التخلي عن استعمال اللغة العربيّة في أجل أقصاه ثلاث سنوات" (الرواية، ٣٣). مزج أفوقاي هذه العلامة التاريخية المتصلة بفكر القمع لدى الإسبان بما فُرض على عائلته وهو طفل.
- كشف ترجمة نص أحجية ملغز: "كان التركيب بالعربيّة مهلهلاً وركيكاً. ألحّ علي الخوري لأشرح له البيت الثاني. فتخلصت من ذلك بأن قمت بترجمة حرفية. أما من وجهة نظري الخاصة فكُتّاب النصّ يقصدون انتشار الإسلام" (الرواية، ٤١)، وهذه العلامة ذات مرجعية تاريخية فكرية تقضي توظيف خبرات الموريسكيين لغايات فكرية خاصة لقراءة المخطوطات التي تستعصي عليهم، وهو أمر ثابت امتزج مع تجربة شخصية لأفوقاي وثقها في رحلته، واستعان بها السارد السيميائي في الرواية.
- حوار أفوقاي مع زميله أنتاني عن التخاذل: "أتفهّم جرحك لكن كن واقعياً، فبابا أحمد يحرص على وشائج جيدة مع الإسبان، ولن يقوم بأي شيء يثير حفيظتهم. هو في حاجة إليهم، كما هم في حاجة له ضد الأتراك وضدكم، أنتم الموريسكيين. ينبغي أن تكونوا معزولين. تخيل لو كان بإمكانكم الحصول على دعم بابا أحمد، لو وضعت قوته الضاربة في خدمتكم لما تعرضتم للاضطهاد الذي تعرضتم له وعانيتم منه" (الرواية، ٩٠). يمرّر لنا أفوقاي عبر حوار مع صديقه الأمازيغي أنتاني رسالة التخاذل التاريخي الذي لقيه الموريسكيون إبان تهجيرهم من أوطانهم ضمن لعبة سياسية معقدة، والرسالة تصل للمتلقّي عبر التنامي السردى للعمل الروائي، وهذه الرسالة تتأتّى لنا عبر المزج المرجعي الذي يجمع بين حقيقة تاريخية ورأي شخصي وضعه السارد السيميائي على لسان الأمازيغي أنتاني.
- ما يجب أن يكون لتخفيف الألم: "ورغم أننا مسيحيون بالثقافة كما نحن اليوم مسلمون بالثقافة. على المغاربة أن يقبلونا على ما نحن عليه، أقل صفاء ربما، ولكن أكثر غنى" (الرواية، ٢١٨). وهذه علامة نصية ذات بعد فكريّ لما يفترض أن يكون من المغاربة تجاه الموريسكيين المهجرين، وترد هذه الإشارة الفكرية على لسان أفوقاي راوي العمل، وكأنّ شخصية الراوي تعلن عن ذاتها متحدة بالبنية الفكرية والتاريخية للرواية.

الشواهد الاجتماعية

- وتشمل هذه الشواهد قضايا اجتماعية خاصة بالحياة الشخصية لأفوقاي، مما ضاعف من حضور المرجعية الاجتماعية بما تثيره من قضايا حقيقية وأخرى تخيلية. ومن أبرز الشواهد الاجتماعية التي تمثلها أفوقاي راوي الرواية وبطلها:
- مرحلة الطفولة والتنشئة الدينية التي عاشها رغم المحاذير الناتجة عن قسوة محاكم التفتيش في الأندلس: "أشار والدي بأن أتبعه نحو غرفة صغيرة ملاصقة للإصطبل، ندخل إليها من خلال غرفة مؤدية لها. هناك كان والدي ينزوي ليقراً ويتأمل. في سن عشر سنوات صرت آلف هذا المكان حيث حفظني والدي فيه بعض سور القرآن الكريم، وعلمي القراءة والكتابة بالعربيّة" (الرواية، ١٩)، وهنا يمزج السارد بين حقيقة تاريخية لما كان يمارسه الموريسكيون لحماية ما تبقى من دينهم، وما افترضه من حياة عاشها أفوقاي في طفولته.

- في مطلع شبابه عمل مترجماً مع أسقف الكنيسة إثر حادثة الرق الاثري الذي نجح بقراءته وفك رموزه: "في الحال تبين أن كتابته مختلفة عن الكتابة الأندلسية الدائرية والمزخرفة. كانت كتابة الرق تميل للأشكال المكعبة البسيطة القريبة من الخط الكوفي القيرواني. لم يكن النص مشكولاً، ولكن الأصعب من هذا هو أنه كان بلا تنقيط، وبإمكان الكلمة أن يكون لها عدة مدلولات" (الرواية، ٣٩). وفي سياق آخر: "كان علي أن أقوم بترجمة نصوص أخرى. أحد هذه النصوص تتحدث عن اضطرابات الشرق، حيث سيولد ستة قرون بعد ميلاد المسيح عليه السلام، ملك يفرض سلطته على العالم" (الرواية، ٤٠).

- علاقته بالشابة الفرنسية أوجيني التي تعرّف عليها في مدينة أورليان الفرنسية وحبّه لها وما أحدثه من صراع داخلي عنده: "بادرتني فتاة متميزة بزيها وتصرفاتها المرفهة، تبدو في سن الرابعة والعشرين، شعرها أسود فاحم وعيناها كستنائيتا اللون وبشرتها تميل للسمرّة" (الرواية، ١٣٧). وفي سياق آخر: "مدّت يدها لي بقيت مسمراً مذهولاً، لا يمكنني أن أضع يدي في يد امرأة. فاللمس من عمل الشيطان، ولكن أمام يدها الممدودة لم يكن بإمكانني الرفض" (الرواية، ١٣٨). وأيضاً: "ترأى لي الوجه الجميل لأوجيني. صدرها، شعرها الجميل... كان الله في عوني! بدأت أبتهل" (الرواية، ١٣٩). ثم يتساءل: "هل تكون أوجيني يد الشيطان؟ لا يمكن لها إلا أن يكون طريق الرب أو الله، لأن الرب محبة وأوجيني أحد أسرارها" (الرواية، ١٤٥). وفي مقام الاعتراف يقول: "أوجيني هي الصاعقة التي عصفت بكاني" (الرواية، ١٤٦). ثم يتساءل: "يا إلهي كيف يمكنني اتخاذ أوجيني زوجة والاستقرار في بلاد الإفرنج؟ لا يمكن ذلك: شرح كل ما أقوم به وما لا أقوم به، والتخلي عن أبنائي. لا. مرافقتها لي إلى المغرب؟ هذا مستحيل. فلا يتعلق الأمر بنقل أوجيني فقط وإنما تحويل السياق الاجتماعي والثقافي، وهما غير قابلين للتحويل" (الرواية، ١٥٠).

تندرج الشواهد السابقة في السياق الاجتماعي ذي المرجعية التاريخية الموثقة. وهناك شواهد اجتماعية أخرى يمارس فيها أفوقاي تواصلاً فكرياً واجتماعياً يمثل صدى لأحداث تاريخية تستدعي التفسير أو التعليل أو المساءلة، وتورد تارة على لسان شخصية متخيلة رافقت السياق التاريخي الموثق لتفسيره دون أن تتعارض معه، وهذا اللجوء التخيلي لا بدّ كاشف عن أصالة في شخصية أفوقاي وقدرة على تقديم وجهة نظره وعدم الاكتفاء بسرد الأحداث ورصدها:

- يقول أفوقاي في رحلته: "اعلموا أنني ترجمان سلطان مراکش، ومن بتلك الدرجة يحتاج يقرأ في العلوم وكتب المسلمين وكتب النصراري، ليعرف ما يقول وما يترجم بحضرة السلطان" (أفوقاي، ٢٠٠٤).

- ومن محكي الأقوال ما نقله أفوقاي عن صديقه "خامي" - رفيقه في الهرب إلى المغرب - في معرض رغبته أن يلتزم بتعاليم الدين: "أنا، بيدرو (الاسم المسيحي لأفوقاي)، سأصير مسلماً. مثل نصراري إسبانيا، الذين يقول شيئاً وهم يفعلون شيئاً آخر" (الرواية، ٦٦)، وتأثير أفوقاي على رفاقه واضح وظاهر فكرياً وسردياً. وفي سياق آخر يعترض "أنتاني" رفيق أفوقاي في العمل في البلاط - على بعض ممارسات رجال الدين، وينقل أفوقاي اعتراضه بقوله: "أيّ إسلام شهاب الدين؟ إسلام علماء تقليديين والذين ينخر بعضهم الفساد؟ أو إسلام المتمردين ذوي المطامح السياسية؟ أو إسلام المتصوفة المنزوين في عزلتهم، المستقلين عن قضايا الشأن العام؟ هؤلاء وأولئك يستغلون الإسلام لأهداف سياسية" (الرواية، ٢٠٢).

- مهارته في النقاش ومحاججة من قابلهم في أوروبا أثناء سفارته التي كلف بها السلطان زيدان جلباً لحقوق الموريسكيين المسلوقة: "بلد الإفرنج نفسه يعيش توترات دينية، وقد تبينت هذا أثناء لقاءاتي مع علمائهم ... هذا البلد عشت تجربة فكرية وأخرى عاطفية أثرتا في حياتي. لا يتخذ الإفرنج من الكتابات المقدسة مرجعاً لهم بل يستوحون مرجعهم الفكري والإداري من تراث الإغريق والرومان ... كان الإفرنج، وهم يتحدثون عن الإسلام يبحثون عن سند فيه لمناظراتهم ومناقشاتهم. كان الإسلام يثير اهتماماً كبيراً لديهم، لكن ينبغي الإقرار بجهلهم بالإسلام أو بالأحرى بمعرفتهم الجزئية به" (الرواية، ١٣١-١٣٢).

وأفوقاي في رواية الموريسكي يتجاوز نطاق المحاججة التي تضمنتها رحلته الموثقة إلى أوروبا، لكنه صنع عمقاً إضافياً مبنيّاً على تفسير واقع ذلك الزمان، لأن الرواية تستنطق الحدث التاريخي وتعلله، وهذا يتوافق مع الميزات الخاصة التي توطر

شخصية أفوقاي، وهناك إشارات للتاريخ العام للمأساة، تُمرّر من خلال مواقف ذات صلة بالحياة الاجتماعية المفترضة لأفوقاي.

الوهم المرجعي Referential Illusion

استجابة لأدبية النصّ الروائيّ يتخذ الوهم المرجعيّ دور الفاصل بين النصّ الروائيّ والانعكاس المرجعيّ المباشر الذي يحيل إليه خارج حدود النصّ، بوصف المرجع "يدل على كل ما يمكن التفكير فيه أو التلميح إليه" (ريفاتير، د.ت، ص ٤٦)، والتفكير بالنصّ الروائيّ والارتقاء الجماليّ إليه، يستدعي إيهام القارئ، مؤقتاً، باستقلالية النصّ عمّا يحيل إليه من مرجعية تتأكد لاحقاً في ذهن المتلقي، يعبر إليها بعد الاستجابة الجمالية السابقة على الاستجابة المرجعية، والوهم المرجعيّ حسب كريزينسكي إشارة سيميائية متغيرة للمرجع الوقائيّ أو الإمساك بالحقيقة مباشرة" (التمارة، ٢٠٠٣: ص ١٠٠).

وأقصر الطرق لتحقيق الوهم المرجعيّ هي عملية التمثيل Representation الذي يقف علاماتيّاً موقف الفاصل الذي يحيل على المرجع دون الوقوع في التطابق، ونعني به مجمل أشكال حضور الآخر المختلف في النصّ الأدبي سواء في مستوى الشخص، أو علاقات الأزمنة والأمكنة ورموز الثقافة وهو مصطلح فلسفي يرى أنّ وظيفة اللغة أن تنوب عن الأشياء، أي تحيل على واقع غير لغوي. ومن هذا المنطلق عدّت الكلمات علامات تمثل أشياء العالم. (Al-Shamali, 2022)، وفي ذلك فعل تحرير للنصّ الروائيّ بأدوات جمالية، يقول محمد الخبو "يبقى التمثيل الفني إذاً، أحد العناصر التي تبني مرجعية النصّ الروائيّ، وتجعلها مؤطرة بمقولة الوهم، فتغدو الإحالة على العالم الواقعي بلغة سيرل إحالة مزعومة" (الخبو، ٢٠٠٦، ص ٧٦)، ولا يتحقق هذا التمثيل إلا باللغة الأدبية، واللغة الأدبية قادرة على التفكّل من القصديّة المباشرة على الدوام مرتبهة إلى أكثر من وظيفة قبل تحقق الوظيفة المرجعية، "من هنا يصير الوهم المرجعيّ آلية مُهمة ترتبط بالإبداع الروائي كما يقول كريزينسكي الذي يمتزج بتجذير دافع المحاكاة، وهذه الدافع يحتضن مبدأ التمثيل (كريزينسكي، وعقار، ١٩٨٨).

والسؤال، كيف يكون بناء الرواية محكوماً للتاريخ الخاص لأفوقاي؟ وهل كان أفوقاي في الرواية شخصية وهمية أم حقيقية؟ أم جمعت بين الحقيقي والتخييلي؟ وهل عززت الانزياحات المقصودة التي أنجزت بحق شخصية أفوقاي عما قرأناه عنها في رحلته المذكورة الإيهام بواقعية الشخصية؟

يُقرّ حسن أوريد في مقدمة روايته - التي جاءت بمثابة عتبة سياقية تبرز غايته من تأليف الرواية- ارتكابه إلى رحلة شهاب الدين أفوقاي في عمله واتخاذها مساراً حكاثياً للرواية، يقول: "نعم تصرف في حياة أفوقاي، ووظفت المادة التاريخية، مع احترامي لسداها، لأنني أكتب رواية. فالجانب الذاتي حاضر قوي في هذا العمل" (الرواية، ٩)، وقد حضرت أحداث متخيلة عديدة عمقت المرجعية التاريخية للرواية وأوهمتنا بها رغم عدم ثبوتها تاريخياً من قبيل:

- افتراض حادثة قتل كان ضحيتها أحد المسيحيين القدماء "في خورنية البلدة، بلدة الحجر الأحمر... تم التحقق من هوية الضحية المسكين. كان مسيحياً قديماً... وحين عثر على الجثة مقطوعة الرأس دعيت للتعرف عليه.. وبواسطة ندبة في ساقه تمكنت من ذلك" (الرواية، ٢٠). ومثل هذا الافتراض سيؤجج الصراع مبكراً في العمل ويكون مقدمة لحوادث عنف أخرى، وهي حادثة متخيلة تتوافق مع العديد من حوادث الصدام الايديولوجي بين محاكم التفتيش والموريسكيين.

- اشتغال أفوقاي بالفلاحة مع والده والإشراف على الفلاحين وذلك في مرحلة صباه: "كنت آنذاك في السادسة عشرة من عمري، وكان عليّ أن أشغل الحصادين، وأن أحرص على مؤونتهم" (الرواية، ٤٩)، وهذه الحادثة دخيلة على سيرة أفوقاي ولم تثبت، ولكنها تتوافق مع المهن التي كان يتقلدها الموريسكيون قبل إقصائهم عن الأندلس.

- توظيف شخصيات متخيلة كصديقه "خايمي"، الذي اتخذ منه قريباً يبادله الآراء ويكون صدى لأفكاره، وشكلت شخصية خايمي وسيلة لبناء أحداث تاريخية مثبتة كهروب أفوقاي إلى المغرب للنجاة بدينه ولغته، فكان الإيهام المرجعيّ حاضراً من أجل ذلك: "كان خايمي المنهمك في الحصاد، يغني ويقطع هذه الأجواء المرحية بكلام سوقي ومن حين لآخر، يبدأ بالتصفيق والرقص بأعقاب رجله كأنما يرقص الفلامنغو" (الرواية، ٤٩). وفي سياق آخر يقول خايمي لأفوقاي: "لكني أنا لست مسلماً.. إنني لا أعرف حتى من أكون" (الرواية، ٥٧). وبعد أن تم تجنيده في جيش السلطان

آل إلى مصيره المحتوم، يخبرنا أفوقاي عن ذلك بقوله: "شارك في حملة ضد قبائل متمردة في بلاد حاحا لم يعد إثرها، فقد أردته طلقة غادرة قتيلاً" (الرواية، ٧٥) وهذه الأحداث الاجتماعية ضرورية للبعد التخيلي للرواية وممكنة للكاتب أن يقدم التاريخ في إطار رواية.

الكثافة المرجعية Referential Opacity

تتجلى الكثافة المرجعية كما اقترحها كريزينسكي في مبدأ التعقيم الدلالي الذي يصطنع مسافة جمالية تحرره من التطابق مع مرجعيته وتفي بمتطلبات أدبية النص، فتفصل النص عن مرجعيته فصلاً جمالياً قائماً على مبدأ المغايرة يشبه ما أقدمت عليه آلية الوهم المرجعي، ولكن من زاوية أكثر شمولية، إذ "تظهر الكثافة المرجعية بوصفها عنصراً فنياً يمكن النص من تقديم جوانب جزئية للمرجعية المعروضة، وليس عرضاً تفصيلياً كاملاً لها، فيصير جوهر المرجعية النصية للرواية محكوماً لمبدأ النقص وليس الاكتمال" (التمارة، ٢٠٠٣)، وهذا يدفع إلى تجنب العرض التفصيلي لجوانب العالم المرجعي للرواية ويقتضي العزل والانتقاء والتكثيف لمادة هذا العالم.

يمثل ذلك شكلاً من أشكال التحريف العلاماتي المبرر، وكأن الروائي يعتّم مادة المرجعية للتوافق ومتطلبات الناحية الأدبية، وهي متطلبات تستدعي زعزعة الدلالة وانحرافها وترميزها وانفتاحها على التأويل. يقول كريزينسكي "الكثافة المرجعية لا تقف عند تكتيك روائي، بل تدل على تشكيل هيئة رمزية تكفل للسارد، الذات حرية خطابية مطلقة، تتيح له أن يعبر عن الحقل الروائي تعبيراً إشكالياً عن وعيه الفلسفي وقلقه الوجودي" (التمارة، ٢٠٠٣).

وفي ذلك إعادة إنتاج للمرجعية في النص الروائي لأن تجاوز الوضوح يقود إلى انفتاح الدلالة، وإعادة قراءة التاريخ، دون إغفال المراهنة على ما يحدثه الفضاء السردي من أفراقات دلالية ضرورية لتحقيق الوظيفة المنتظرة من الرواية التاريخية.

تكثر في الفضاء السردى للرواية العلامات ذات المرجعية التاريخية، مضمّنة في سياق التخيل، وهي علامات لها دلالاتها المتعددة ذات الكثافة المرجعية والامتداد، نتيجة تعبير شخصية البطل عن قلقه وتوتره وفهمه للحياة، ومن الأمثلة على ذلك توظيف أفوقاي رفيقين مفترضين رفاقه في العمل في بلاط السلطان هما الأمازيغي "أنتاني" والبرتغالي "دوغا": "كان أنتاني ودوغا زميلي طيلة المدة التي قضيتها في ظل حكم السلطان مولاي أحمد المنصور. وبقدر ما كان الأول لامعاً بخصاله الإنسانية والفكرية بقدر ما كان الثاني يتميز باندفاعه وتهوره" (الرواية، ٧٧)، ومعلوم أن هذا الاختيار مقصود في العمل للعقلية الرؤيوية التي يحملها كل منهما والتي ستحقق كثافة مرجعية تسائل الأحداث التاريخية الحاصلة بأكثر من وجهة نظر:

– أنتاني: شاب ذو عقلية جدلية من أصول أمازيغية اقترحته قريحة راوي العمل شهاب الدين أفوقاي لتكريس فكرة تعدد الأصوات وتباين الخطابات، فمن خلال ذلك يمكن بلورة وجهة نظر يتداخل معها المؤلف والقارئ. يقول شهاب الدين أفوقاي عن أنتاني "كان جاري مثقفاً، كامل الرجولة، ومتمكناً يسمى أنتاني. كان يقضي صحابة يومه قارئاً" (الرواية، ٧٦).

– دوغا: وهو ابن مرتد برتغالي اسمه "دوغالي" كان قد عمل في خدمة السلطان عبد المالك: "وظف السلطان ابن دوغالي ككاتب في البلاط. كان هذا الشاب، الذي شارب على العشرين من العمر يحرص على الحفاظ على اسمه كمرتد، دوغا، وكان يرفض حمل اسم عبد الهادي الذي كان سمّاه به السلطان. كان يبدي لا مبالاة مشفوعة بالغيظ، وجعله اندفاع الشباب، الذي لم تكن تكبحه تعاليم الإسلام، متهوراً وطائشاً" (الرواية، ٧٧). ودوغا يحتفظ بجانب سوقي من حديثه، غير متفائل، ويرى البلد موبوءة وأن السلطان يستغل الفلاحين (الرواية، ٩٤). كما أنه لم يفلح بالتخلص من إدمان الخمر (الرواية، ٩٢). ولا يرى فرقاً بين الأديان (الرواية، ٩٣). وطموحه هو الهجرة إلى البرازيل (الرواية، ٩٤). ثم أصبح قرصاناً يسطو على السفن الإسبانية (الرواية، ١٨٥). وفي خطابه كان يمرر إشارات تاريخية مهمة.

تتعاضد هذه الآليات مجتمعة لتحقيق مرجعيتها التاريخية القائمة على التأويل وانفتاح الدلالة بما يضمن أدبية النص مقابل مرجعية التاريخ واشتراطاته، فخلال رسم الشخصية المتخيلة تحققت العديد من الأحداث التاريخية المثبتة التي تحتاج إلى ثراء في تقديمها تقديماً متنوعاً، وهذا ما حققته شخصية أنتاني ودوغا في آلية الكثافة المرجعية.

الخاتمة

وقد خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج، يمكن إجمالها على النحو التالي:

١. إن المرجعية في النص الأدبي هي علامة لغوية تشكل حالة من التناهي المنتظر بين النصوص، شريطة أن تعتمد على قبول المرجع وتؤمن بمشروعيته.
٢. عالجت رواية "الموريسكي" التاريخ العام" للمأساة الموريسكية من خلال إيهامنا بتتبع التاريخ الخاص لساردها السيميائي "أفوقاي"، وقد منح ذلك الرواية خصائص فنية تتعلق بالرؤية السردية وما تتيحه من تأويلات يشتغل عليها هذا السارد في معرض استجابته لمرجعياته التاريخية. فالرواية عاكفة في مستواها الظاهر على تتبع مأساة الموريسك، وفي مستواها العميق على نقد أخطاء الأنا في الماضي وعثراتها، وعثرات المغاربة في احتضان المهجرين.
٣. تواجه الرواية ذات المرجعية التاريخية لعوامل متعددة ومعقدة تتوزع بين الحقيقي والجمالي والذاتي، فتزاحمت فيها بنيات تكوينية غلّيا، ك (التنافس والإيديولوجيا والأكسيولوجيا والاستطيقا) عبر مقولات إجرائية يسترر للسيميائية التعااقبية إبراز حالة التغير والتبدل في نماذج الرواية.
٤. رغم انتظام أحداث رواية الموريسكي على خطية رحلة أفوقاي إلى أوروبا ١٦١١م إلا أنّ خطابها خضع لفكرة التوتر والاستبدال والجدل، إذ قاد ذلك إلى قلق جمالي أسهم في توظيف أكثر من مستوى مرجعي نقل الإجراء من مفهوم التزامن إلى مفهوم التعاقب. وقد ساعد ذلك المؤلف أن يمرر جملة من الخطابات المتصارعة عبر سارده السيميائي.
٥. كشفت آلية التذويت المرجعي عن خطابات مضادة لما استقر في رحلة أفوقاي "مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب"، تؤكد الفرق بين ما طرحه الساردان المتمثلان في شخص "أفوقاي"، وكان سارد الرحلة محكوماً لميثاق السيرة، وسارد رواية الموريسكي سارد سيميائي يؤكد مبدأ التعااقبية بين النص السابق والنص اللاحق.
٦. أفلحت رواية "الموريسكي" إلى حد بعيد في تطبيق آلية الوساطة المرجعية للموازنة بين الحقيقي والتخييلي في الرواية. كما خلّص المزج المرجعي العلامات النصية من طابعها المباشر في أجزاء واسعة من الرواية وأتاح للخطابات أن تتعدد وتختلف وتتفاعل مع المكونات السردية للرواية وهذا ما وسّع الحقول الدلالية للمرجعية النصية وخلصها من التقييد والحصر.
٧. لم تحقق آلية الكثافة المرجعية وظيفتها تماماً في خلق حالة من التعتيم الدلالي الذي يصنع مسافة جمالية رامية تؤكد فكرة التعاقب لا التزامن بين النص ومرجعياته، ويعود ذلك إلى توظيف عتبات نصية مباشرة الدلالة، كعنوان الرواية، وعتبة مقدمة المؤلف، وعتبات الفصول ذات البعد الزماني والمكاني.
٨. توصي الدراسة بضرورة أن تتجه الدراسات النقدية الموجهة لتحليل الرواية التاريخية أن تتنوع في منهجيات النقد لتكون قادرة على تجاوز الوقوف عند المقارنة المباشرة بين نصين إلى الوقوف على طرائق التوظيف ومستوياته، لتحقيق أقصى استفادة من التعالق الناشئ بين الرواية والأصول التاريخية المتواشجة معها، وهذا يفتح الباب أمام منهجيات عديدة ومنها السيميائية التعااقبية أو التطورية، ومنها الأسلوبية الروائية.

الشكر والتقدير

أتوجه بخالص الشكر إلى المراجعين ورئيس التحرير على تعليقاتهم القيمة على المسودة الأولية لهذه الورقة البحثية. كما أعرب عن تقديري وشكري لجامعة البلقاء التطبيقية على تسهيل عملية جمع البيانات. جميع الأخطاء أو أوجه القصور المتبقية هي مسؤوليتي بالكامل.

الإقرارات الأخلاقية

تم إجراء هذه الدراسة وفقاً لمبادئ إعلان هلسنكي (١٩٦٤)، وحصلت على موافقة لجنة البحث والأخلاقيات في جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن. وقد تم الالتزام بالمبادئ الأخلاقية التالية أثناء تنفيذ البحث:

- مبدأ الموافقة الطوعية (تم الحصول على الموافقة المستنيرة من الجهات المعنية في جامعة البلقاء التطبيقية).
- مبدأ تقليل المخاطر على المشاركين.
- مبدأ السرية.
- مبدأ إبلاغ المشاركين بمحتوى وأهداف البحث.
- مبدأ التوثيق الإلزامي لمراحل ونتائج البحث.
- مبدأ موثوقية الأدوات المنهجية المستخدمة في البحث.
- مبدأ صلاحية معالجة البيانات البحثية.

بيان توافر البيانات

تتوفر مجموعات البيانات التي تم جمعها وتحليلها خلال هذه الدراسة عند الطلب من الباحث.

التمويل

أُجري هذا البحث بدعم من جامعة البلقاء التطبيقية خلال إجازة التفرغ العلمي الممنوحة للباحث نضال محمد فتحي سليم الشمالي خلال الفصل الثاني من العام الدراسي ٢٠٢١-٢٠٢٢ والفصل الأول من العام الدراسي ٢٠٢٢-٢٠٢٣.

تضارب المصالح

يؤكد الباحث عدم وجود أي تضارب في المصالح.

مساهمة الباحثة

- قام نضال بوضع تصور الدراسة وتصميمها، بالإضافة إلى جمع البيانات وتحليلها.
- كتب نضال الشمالي المسودة الأولى للمقال.
- قام الباحث بمراجعة النصوص وتحريها، واعتمد النسخة النهائية للنشر.

الموافقة على النشر

يوافق الباحث على تقديم هذه الورقة البحثية للنشر، وبانتظار قرار هيئة التحرير بعد عملية التحكيم، ويوافق على نشرها. كما يؤكد أن هذا العمل لم يُنشر سابقاً، ولم يُقدم إلى أي مجلة أخرى للنظر في نشره.

المراجع

- إبراهيم، عبد الله. (٢٠٠٣). *السردية العربية الحديثة* (ط. ١). المركز الثقافي العربي.
- أفوقاي، أحمد بن قاسم الحجري. (٢٠٠٤). *مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحاب* ١٦١١-١٦١٣ (تحقيق وتقديم محمد رزوق، ط. ١). دار السويدي للنشر والتوزيع.
- إيكو، أمبرتو. (٢٠٠٥). *ست نزوات في غابة السرد* (ترجمة سعيد بنكراد، ط. ١). المركز الثقافي العربي.
- التمارة، عبد الرحمن. (٢٠١٣). *مرجعيات بناء النص الروائي* (ط. ١). دار ورد للنشر والتوزيع.
- الخبو، محمد. (٢٠٠٦). *مدخل إلى الخطاب الإحالي في الرواية* (ط. ١). مكتبة علاء الدين.
- خليل، أحمد خليل. (١٩٩٥). *معجم المصطلحات اللغوية* (ط. ١). دار الفكر.

- الرويلي، ميجان والبازي، سعد. (٢٠٠٢). *دليل الناقد الأدبي* (ط. ٣). المركز الثقافي العربي.
- ريفاتير، ميخائيل. (د.ت). *الوهم المرجعي*. ضمن كتاب *الأدب والواقع* (ترجمة عبد الجليل الأزدي ومحمد معتصم). تينمل.
- ريكور، بول. (٢٠٠٤). *من النص إلى الفعل: أبحاث في التأويل* (ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، ط. ١). دار الأمان.
- الزباخ، مصطفى. (٢٠١٤). قراءة في الظاهرة الموريسكية: الآلام والآثام. *مجلة آفاق الثقافة والتراث*، ١٧.
- سحنين، علي. (٢٠١٨). السيميائيات التعاقبية وتوهين دلالة الزمن الروائي: الطاهر رواينية أنموذجاً. *مجلة دراسات معاصرة*، ٢ (٢)، ٧٥-٦٩.
- سلفرمان، ج. هيو. (٢٠٠٢). *نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية* (ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم، ط. ١). المركز الثقافي العربي.
- الشمال، نضال. (٢٠١٥). إيديولوجية الإقصاء وإثبات الهوية في مختصر رحلة أفوقاي الأندلسي الشهاب إلى لقاء الأحاب ١٦١١-١٦١٣ م. *مجلة العلوم العربية والإنسانية*، ١ (٢)، ٩٦٣-١٠١٩.
- علوش، سعيد. (١٩٨٥). *معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة* (ط. ١). دار الكتاب اللبناني.
- قشتيليو، محمد. (١٩٩٩). *محنة الموريسكوس في إسبانيا* (مقدمة محمد عبد الله عنان، ط. ٢). مطابع الشويخ.
- قشتيليو، محمد. (٢٠٠١). *حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها* (ط. ١). مطابع الشويخ.
- كريزيسكي، فلاديمير وعقار، عبد الحميد. (١٩٨٨). من أجل سيميائية تعاقبية لرواية *مجلة آفاق*، ٩-١، ١٦٢-١٧٤.
- لحمداني، حميد. (١٩٨٦). *في التنظير والممارسة: دراسات في الرواية المغربية* (ط. ١). منشورات عيون المقالات.
- لحمداني، حميد. (١٩٨٩). *أسلوبية الرواية: مدخل نظري* (ط. ١). منشورات سال.
- لحمداني، حميد. (٢٠٠٣). *القراءة وتوليد الدلالة*. المركز الثقافي العربي.
- مصطفى، إبراهيم. (د.ت). *المعجم الوسيط* (ط. ٢). المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.
- اليابوري، أحمد. (١٩٩٣). *دينامية النص الروائي* (ط. ١). منشورات اتحاد كتاب المغرب.

References

- Shamali, N., & Khrais, S. M. (2022). Female inferiority, existential representation, and heritage: A feminist reading of *A Jewish Saviour* by Salmah Al Moushi. *Arab World English Journal for Translation & Literary Studies*, 6(1), 2-19.